واجبُ الأمّة

باتباع القرآن والحديث
وتوقير الأئمة وترك التعصب لهم

محاضرة مفرغة

لفضيلة الشيخ العلامة

عَبدُالمُحسِن بن حَمدالعبّادالبدر

حفظه الله تعالى

الآجرّي
www.ajurry.com

واجبُ الأمّة

باتباع القرآن والحديث وتوقير الأئمة وترك التعصب لهم

محاضرة مفرغة لفضيلة الشيخ العلامة

عَبدُ المُحسِن بن حَمد العَبّاد البَدر

حفظه الله تعالى

شبكة الإمام الآجري

www.ajurry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المقدم:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، محمد بن عبد الله الأمين، الذي أرسله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رحمةً للعالمين، بشيرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين، وعلىٰ أصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سلك سبيلهم واهتدىٰ بهديهم إلىٰ يوم الدين.

إن من المصائب التي بُلِيت بها هذه الأمة منذ قرونٍ مضت وإلىٰ يومنا هذا: التعصب المذهبي المقيت، وهذا المرض هو الذي أضعف هذه الأمة الواحدة وفرَّق صفوفها، إلىٰ أن وصل الحال إلىٰ أسوأ ما وصل إليه من اضطهاد بعض المذاهب لبعض، وقتال بعضهم لبعض، وصلاة المسلمين في المسجد الواحد أربع جماعات متفرقة! كل هذا التفرق وكل هذا المرض الذي ألمَّ بهذه الأمة كان سببه التعصب المذهبي المقيت.

ولا نجاة لهذه الأمة ولا خلاص لها إلا إذا تمسكت بكتاب ربها وسنة نبيها محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تطبيقًا لما أمر به النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم حينما قال: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي"[1].

وحول هذا الموضوع وهو أثر دراسة الحديث في القضاء علىٰ هذا المرض العضال يحدثنا شيخنا وضيفنا الفاضل الشيخ عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن العباد[2].

وقبل أن نترك المجال للشيخ، نود أن نلقي الضوء علىٰ جوانبٍ من حياته.

الشيخ من مواليد شهر رمضان المبارك، عام 1353هـ بمدينة الزلفي. التحق الشيخ حفظه الله بمعهد الرياض العلمي عام 1372هـ، ثم التحق بكلية الشريعة بالرياض، ثم عُيِّن مُدرِّسا في

(1) ذكره الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهُ في: مقدمة في مصطلح الحديث والحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، باب وجوب الرجوع إلىٰ السنة وتحريم مخالفتها (30/ 6)، وقال: أخرجه مالك مرسلاً، والحاكم مسنداً وصححه.

(2) قال العلامة حماد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ: ((إن الشيخ عبد المحسن العباد ينبغي أن يكتب عنه التاريخ. كان يعمل أعمالاً في الجامعة تمنيت لو أني كتبتها أو سجلتها، وقد كان يداوم في الجامعة علىٰ فترتين صباحا ومساء بعد العصر، ومرة جئته بعد العصر بمكتبه وهو رئيس الجامعة فجلست معه ثم قلت: يا شيخ أين القهوة ؟ فقال: الآن العصر ولا يوجد من يعملها، ومرة عزمت أن أسبقه في الحضور إلىٰ الجامعة فركبت سيارة وذهبت، فلما وصلت إلىٰ الجامعة فإذا الشيخ عبد المحسن يفتح باب الجامعة قبل كل أحد)).

معهد بريدة العلمي في عام 1379هـ، ثم عُيِّن مُدرِّسا بمعهد الرياض العلمي في العام الذي يليه، في سنة 1380هـ، ثم عمل مُدرِّسا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في عام إنشائها سنة 1381هـ، وكان -حفظه الله- أول من ألقىٰ فيها درسا. وفي: 30/ 9/ 1390هـ عُيِّن نائبا لرئيس الجامعة الإسلامية، ثم عُيِّن رئيسا لمركز البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، وهو الآن أستاذ مشارك في قسم الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية.

ومن مؤلفات الشيخ، الكتب التالية:

- اجتناء الثمر في مصطلح أهل الأثر.
- عشرون حديثًا من صحيح البخاري، دراسة أسانيدها وشرح متونها.
- عشرون حديثًا من صحيح مسلم، دراسة أسانيدها وشرح متونها.
- من أخلاق الرسول الكريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- دراسة حديث: "نضَّر الله امرأً سمع مقالتي" رواية ودراية.
- قبس من هدي الإسلام.
- عالمٌ جهبذ وملكٌ فذ.

هذه بعض مؤلفات الشيخ -حفظه الله-.

نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن ينفع هذه الأمة بهؤلاء العلماء الأفاضل.

ونترك المجال للشيخ الفاضل ليحدثنا عن موضوع الليلة، فليتفضل..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يزيد الجميع من التوفيق والهدىٰ، وأن يوفق المسلمين جميعا إلىٰ ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

موضوع الكلمة حول: أثر دراسة الحديث الشريف في ترك التعصب للمذاهب. والموضوع في الحقيقة هو أوسع من هذا؛ فالحديث سيكون حول: **واجب الأمة باتباع القرآن والحديث وتوقير الأئمة وترك التعصب لهم**، هذا هو الموضوع الذي سيكون حوله الحديث.

فأقول:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخليله وخيرته من خلقه، أرسله الله تعالىٰ رحمةً للعالمين وحجةً علىٰ الثقلين الجن والإنس، اللهم صلِّ وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه، وارض اللهم عن الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر]. أما بعد؛

إن نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ عباده المسلمين عظيمة وكثيرة، لا يحصيها العادُّون ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]، ولكن أعظم وأجلَّ هذه النعم علىٰ الإطلاق هي بعثة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ هذه الأمة، هذه أعظم النِّعم وأجلِّها، إذ لا تساويها نعمة ولا تدانيها نعمة، والله تعالىٰ قد نوَّه بهذه النعمة العظيمة وهذه المنَّة الجسيمة في كتابه العزيز، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة في إرسال الرسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الرسالة الخالدة، إنما كانت أعظم النعم وأجلّها لأن فيها إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ساق لنا علىٰ يد رسوله الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعظم نعمة وأجلّها وهي إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١١﴾﴾ [الطلاق]، فهذه أجلُّ النعم وأعظمها.

والرسول -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- لما أرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحمةً للعالمين أرسله برسالة كاملة، عامة شاملة، خالدة إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذه الرسالة العظيمة جمع الله تعالىٰ لها هذه الخصال الثلاث، والتي هي:

- **الكمال**؛ فلا نقص فيها بوجه من الوجوه، وقد نوَّه الله بهذه النعمة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾﴾ [المائدة]، نوه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الكمال الذي حصل في شريعة رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذه الآية الكريمة.

- وأما **عمومها وشمولها لكل أحد**؛ فقد جاء ذلك في آيات كثيرة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء].

- وأما **خلودها وبقاؤها** إلىٰ نهاية الدنيا، وشمولها لكل أحد، وأنه لا يسع أحدا الخروج عنها، فقد بينها -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به

إلا كان من أهل النار"[1]، فهذا فيه أنها عامة لكل أحد، وأن هذه الشريعة ناسخة لجميع الشرائع، وأنه بعد بعثة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لا يظفر أحد بالسلامة والنجاة والخلاص من النار ومن العذاب إلا باتباع هذا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد قام -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ- بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة والنصح للأمة، وبلَّغ البلاغ المبين، ونصح غاية النصح وتمام النصح؛ فما ترك خيرًا إلا ودل الأمة عليه ورغبها فيه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وما ترك شرًّا إلا وبينه لها وحذرها منه -عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامْ-، وهذا من كمال نصحه ومن كمال شفقته ومن كمال حرصه علىٰ سعادة أمته و علىٰ نجاتها -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ-.

ومن كمال نصحه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ -وقد بين كل ما يحتاج إليه الناس- أنه رغَّبهم في حفظ هذا الحق، وفي العمل بهذا الحق، وفي الأخذ بهذا الحق.

أما بالنسبة لكتاب الله العزيز فقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه: "خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه"[2]، وهذا فيه حثٌّ علىٰ تعلم القرآن وتعليمه، ومعرفة ما فيه من الخير وما فيه من الهدىٰ، وأن الذين يشتغلون بتعلمه وتعليمه هم خير الناس.

وأما بالنسبة للسنة المطهرة فقد قال -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: "نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، وأداها كما سمعها، فرُبَّ مُبلِّغ أوعىٰ من سامع، ورُبَّ حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه"[3].

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ (153).

(2) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (5027).

(3) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب دعاء رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لمستمع العلم وحافظه ومبلغه (149). والهيثمي في مجمع الزوائد (1/ 143). والألباني في صحيح ابن ماجه (194) وصحيح الترغيب (91) وصحيح أبي داود (3660).

وهذا الحديث -جاء بروايات كثيرة[1]- يدل دلالة واضحة علىٰ أن المشتغل بسنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قد دعا له -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- هذه الدعوة العظيمة؛ وهي أن يُنضِّره الله، وأن تكون له النضارة، وأن يكون علىٰ هذا النحو الذي دعا به رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وهذا ترغيبٌ منه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- في تلقي سنته، وفي حفظها، وفي التفقه فيها، وفي نقلها من سلف الأمة إلىٰ من وراءهم، وهكذا إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والتفقه في دين الله عَزَّ وَجَلَّ أرشد إليه أيضا رسول الله وحث عليه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، في الحديث الصحيح -المتفق علىٰ صحته الذي رواه البخاري ومسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- قال: "من يرد الله به خيرا يفقه في الدين"[2]. والفقه في الدين -كما هو معلوم- إنما هو عن طريق الكتاب والسنة، و إنما هو الأخذ من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ومن سنة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

وهذا من كمال نصحه؛ فقد بيَّن وأرشد وأوضح، وحرص غاية الحرص، ونصح غاية النصح، وبيّن غاية البيان، ثم مع ذلك يُرغِّب ويدعو لمن يقوم بهذه المهمة العظيمة، فهذا مع بيانه وإرشاده ونصحه وتوجيهه حثٌّ وترغيبٌ للعناية بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وبسنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ والتفقه فيهما، ومعرفة ما اشتملا عليه من الخير، وتعبَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ نحو ما جاء في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

(1) رواه نحو عشرين صحابيًّا (منهم: أنس بن مالك، أبو الدرداء، عبدالله بن مسعود، أبو سعيد الخدري، زيد بن ثابت، معاذ بن جبل، عبدالله بن عمر، جبير بن مطعم، النعمان بن بشير، جابر بن عبدالله، سعد بن أبي وقاص، أبو هريرة،، أم المؤمنين عائشة، زيد بن خالد الْجُهَني، عمير بن قتادة الليثي، ربيعة بن عثمان، شيبة بن عثمان، بشير بن سعد والد النعمان، عبدالله بن عباس، أبو قرصافة -رضي الله عنهم وأرضاهم-)، وله عدة ألفاظ.

(2) أخرجه البخاري في كتاب العلم من صحيحه، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين (71). ومسلم في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة (1037).

ولما أرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الرسالة الكاملة، الشاملة، الخالدة، الباقية، أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جماعة من الخلق بصحبته، وبالجهاد معه، وبتلقي حديثه، وبالنظر إليه في هذه الحياة الدنيا وبسماع كلامه، فهذه خصائص وميزات خصَّ الله تعالىٰ بها خير هذه الأمة وسلف هذه الأمة الذين هم الأسوة والقدوة بعد رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وهم صحابته الكرام -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، الذين لم يكن مثلهم فيما مضىٰ، ولا يكون مثلهم فيما يأتي، لأنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين؛ أكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصحبة نبيه، وجعلهم المختارين بأن يكونوا في زمانه، وأن يتشرفوا برؤيته في هذه الحياة الدنيا، وأن يسمعوا كلامه من فمه الشريف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، فيعوه ويحفظوه وينقلوه إلىٰ من بعدهم. وقد قاموا بهذه المهمة خير قيام، ووفقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتحقيق ما أرشد إليه رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ من العناية بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وبسنة رسول الله، والتفقه في دين الله، واتباع ما جاء عن الله وعن رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

ومن الأدلة علىٰ عنايتهم بالقرآن ما جاء عن عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنه قال: **"كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتجاوزهن حتىٰ نتعلم معانيهن والعمل بهن، فتعلمنا العلم والعمل جميعا"**، وهذه عنايةٌ بالقرآن تعلمًا وتعليمًا وعملًا، فقد كانوا إذا تعلموا عشر آيات من القرآن لم يتجاوزوهن حتىٰ يتعلموا معانيهن والعمل بهن، حتىٰ تعلموا العلم والعمل جميعا.

أما بالنسبة لسنة رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-؛ فمعلوم أن الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ منذ أن بعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو يلقي الأحاديث علىٰ صحابته في مناسبات مختلفة، فتارة يبدؤهم، وتارة يسألونه فيجيبهم، وأحيانا يأتي جبريل علىٰ صورة رجل فيلقي أسئلة علىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فيجيبه الرسول -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ- وصحابته يسمعون، ويقول الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بعد ذلك: "هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم". فالصحابة -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ- تلقوا ذلك عن رسول الله لملازمتهم له و حين وجودهم معه، أو لوجود من يأتي ويسأل عما حصل له.

واختلفوا في ذلك قلة وكثرة؛ فمنهم من كان يتحمل الأحاديث الكثيرة عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، ومنهم من كان قليل الحديث عن الرسول -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

ومن أمثلة حرصهم علىٰ تلقي حديث رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أنهم كانوا يجمعون ويوفِّقون بين مصالحهم وبين الإتيان إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لتلقي السنة عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ-، جاء في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ أنه قال[1]: "كنا نتناوب علىٰ رعاية الإبل"؛ يعني أنه بدل أن يذهب كل واحد لرعاية إبله يجمعون إبلهم بعضها مع بعض، ثم يذهب بها واحد في يوم من الأيام والآخر يكون مع رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، يعني تكون لكل واحد منهم نوبة في رعاية الإبل، وإذا رعىٰ الإبل وجاء فإنه يأتي ويُحصِّل ما يمكنه من رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، يقول عقبة بن عامر -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ-: "كنا نتناوب علىٰ رعاية الإبل، فلما كانت نوبتي عجلتها بعشي -يعني رجع بها في الرواح وفي نهاية النهار مبكرا- فجئت إلىٰ رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، حيث وجدته قائما يحدِّث الناس، فسمعته يقول: "ما من مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين مُقْبلًا فيهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة"، قال عقبة: فقلت: ما أجود هذه!"، تلفظ بهذه الكلمة والناس يسمعونها، من شدة فرحه بهذا الخير الذي أدركه من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وقد جاء متأخرا، قال: "ما أجود هذه! فإذا أنا برجل يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر قال: إني رأيتك جئت آنفًا"، ثم بيَّن له الشيء الذي فاته، فقال: "قال -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ-: "ما من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء".

فهذا الحديث الشريف يوضح لنا أمورا:

أولا: تناوبهم في العمل ليظفروا بلقاء رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وأخذ السُّنة عنه.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (234).

ثانيا: فرحهم واغتباطهم بما يحصِّلونه من حديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وإن قلَّ، يعني ولو كان هذا الذي حصَّلوه قليلا.

ثالثا: تعاونهم علىٰ الخير، وعلىٰ إرشاد بعضهم بعضا إلىٰ ما فاتهم، كما حصل من عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- مع عقبة بن عامر، حيث لفت نظره إلىٰ ما قد فاته.

فهذه نماذج من عنايتهم بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن عنايتهم بسنة رسوله عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ.

وكان من حفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذه الشريعة و لهذه السنة -سنة الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ- أن هيَّأ لها هؤلاء الصحب الكرام -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-. وهذه الفضيلة والخصيصة التي ظفروا بها هي في طليعة الأسباب التي تفوقوا وتميزوا بها علىٰ غيرهم، لأنهم هم الذين تلقوا هذا الهدىٰ عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وهم الذين أدَّوه إلىٰ من بعدهم من التابعين، وهكذا جيلاً بعد جيل.

فإذن؛ كل من يقتدي بسنةٍ عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، جاءت عن صحابي من الصحابة، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطي ذلك الصحابي مثل أجور من استفاد و من عمل بهذه السنة، لأن هذا الصحابي الذي جاء بهذه السنة وتلقاها عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، ونقلها إلىٰ من بعده هو الواسطة بيننا وبين رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، وهو الذي جعله الله ينقل حكم هذه السنة عن الرسول إلىٰ من بعده، فلهم مثل أجور من استفاد خيرا بسببهم.

فأعمالنا الصالحة التي نعملها طِبقًا لما جاء عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ يعطي الله تعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ مثل ما أعطانا، لأنه هو الذي دلنا علىٰ هذا الخير، ويعطي صحابة نبيه، وكل من تلقىٰ عنهم بمثل أجر العامل الذي عمل بهذه السنة التي جاءت من طريق ذلك الصحابي ثم التابعي، وهكذا من بعدهم، فهو شرفٌ عظيمٌ وفضلٌ جزيلٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ، يؤتيه من يشاء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذو الفضل العظيم.

ثم إن التابعين تلقوا عن الصحابة -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ-، وكانوا يرتحلون من بلد إلىٰ بلد ليظفروا بالحديث الواحد عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، وإذا حصلوا علىٰ الحديث من طريق فيها نزول فإنهم يذهبون إلىٰ ذلك الشخص الذي يكون عنده الحديث بعلو، ويأخذوه منه مباشرة، لتقرب الوسائط وتقل بينه وبين رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

فالتابعون تلقوا السنة عن الصحابة -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، وهكذا تابعو التابعين من بعدهم، واستمر الأمر علىٰ ذلك.

وكانت السنة محفوظة في الصدور، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطىٰ الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أعطاهم من الحفظ ومن الإتقان ما هو مذهل! والإنسان عندما يسمع بعض الوقائع التي حصلت لبعضهم من الحفظ يتعجب، ويرىٰ أن هذا شيء لا يحصل إلا لمن وفقه الله عَزَّ وَجَلَّ، فكان الحفظ موجودا في الصدور.

وفي زمن الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، كما كان منهم من يحفظ، فقد كان منهم من يكتب، كعبد الله بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهْ-.

ثم بعد ذلك بدأ تدوين السنة وكتابتها، وبدأ تدوينها في القرن الثاني علىٰ طرق مختلفة، ثم بعد ذلك في القرن الثالث اتسع التدوين وكان علىٰ وجه أتم، وعلىٰ وجه أكمل، ولذلك سمِّي ذلك العصر بالعصر الذهبي لتدوين السنة.

والقرن الثالث هو العصر الذي دُوِّن فيه الصحيحان والكتب الأربعة، وكثير من الكتب دُوِّنت في ذلك الوقت، ثم حصل التدوين بعد ذلك.

وكان من التدوين ما هو متجه إلىٰ تدوين الحديث دون تعرضٍ للفقه أو الاستدلال بالأحاديث علىٰ مسائل الفقه، كما حصل بالنسبة للكتب المؤلفة علىٰ مسانيد الصحابة؛ فالمؤلف يذكر الصحابي، ثم يذكر ما له من الأحاديث من غير أن يلاحظ فيها أبوابها ودلالتها، وإنما يذكر

أحاديث كل صحابي علىٰ حدة، فيأتي إلىٰ أبي بكر فيورد ما له من الأحاديث، ثم يأتي إلىٰ عمر فيورد ما له من الأحاديث، وهكذا، فهذا تدوين للسنة من غير تعرض لمسائل الفقه.

وهناك تدوينٌ علىٰ نحوٍ آخر؛ وهو الذي جمع بين الرواية والدراية، أي بين الفقه والحديث، مثل صحيح البخاري، فالبخاري جمع فيه بين الفقه والحديث، فهو كتاب رواية ودراية؛ كتاب حديث صحيح عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ وكتاب فقه. وهذا الفقه يتمثل في تراجم الأبواب التي يعقدها، ثم يورد الأحاديث مستدلاً بها علىٰ ما ترجم به، وأحيانا تكون دلالة الترجمة علىٰ الحديث ودلالة الحديث علىٰ الترجمة خفية ودقيقة، لا يدركها كل واحد، وهذا دليل علىٰ دقة البخاري، ودقة فهمه، وجودة فقهه -رحمه الله-، وقد قال بعض العلماء: فقه البخاري في تراجم صحيحه، ولهذا أُلِّفت مؤلفات خاصة في تراجم الصحيح، فهو يذكر الترجمة وكيف يطابق الحديث الترجمة، بل إن هذه الغاية -التي هي العناية بالفقه- هي التي جعلت البخاري يفرِّق الأحاديث علىٰ الكتب والأبواب في أماكن مختلفة، من أجل الاستدلال بها علىٰ ما يريده، ولكنه إذا أورد الحديث مكررا لا يورده بنفس الإسناد أو بنفس المتن؛ بل يكون هناك شيء من الفرق، فيورده مثلاً في موضع عن شيخ، ثم يورده في موضع آخر عن شيخ آخر، وهكذا، فتجد أنه عندما يذكر الحديث في أماكن متعددة يأتي بفوائد جديدة غير الفوائد التي كانت موجودة في الموضع الأول، فيكون قد جمع بين تعداد الطرق وتنوعها وتكررها وأنها جاءت من طرق مختلفة، وبين دلالتها علىٰ الفقه ومسائله المختلفة، وهذا المقصد الذي قصده البخاري جعله أحيانا يورد الحديث في مكان خفي، وليس الكل يتفطن أن الحديث موجود في صحيح البخاري؛ بل إن بعض العلماء ينفي أن يكون الحديث في البخاري، فيقول هذا الحديث ليس في البخاري، والسبب في هذا أنه يبحث عنه في مكان يظن أنه مظنته والبخاري يكون قد أورده في مكان دقيق من أجل الاستدلال علىٰ مسألة دقيقة، فلا يتفطن له، وهذا ما حصل للحاكم في المستدرك، فإنه أحيانا يقول: صحيح علىٰ شرط البخاري ولم يخرِّجه، والواقع أنه قد خرَّجه، وهو موجود في الصحيح،

ولكن السبب أن الحاكم أحيانا يبحث عنه في موضع من المواضع متبادر إلىٰ أنه يكون فيه، ولكن البخاري يورده في مكان -ليستدل به علىٰ مسألة دقيقة- لا يتفطن له كل أحد.

وأضرب مثلاً من الأمثلة التي تدل علىٰ دقة فهم البخاري -رحمه الله-:

في كتاب الإجارة أورد بابًا، ثم أورد تحته قطعة من حديث طويل موجود في مواضع متعددة من الصحيح، والباب الذي أورده في كتاب الإجارة هو قوله: « بَابٌ: إِذَا اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا لِيَعْمَلَ لَهُ بَعْدَ شَهْرٍ أَوْ سَنَةٍ جَازَ، وَهُمَا عَلَىٰ شَرْطِهِمَا الَّذِي اشْتَرَطَاهُ إِذَا جَاءَ الأَجَلُ »، هذا عنوان الترجمة، ومعنىٰ هذا أن العقد إذا أُبرم مثلاً في شهر شوال والتنفيذ يبدأ من محرم فإنه جائز، يعني أن الإنسان إذا عقد لا يلزمه أن يبدأ العمل بعد العقد مباشرة، وهذه المسألة خلافية بين العلماء، وهي موجودة في كتب الفقه؛ فمنهم من يقول بأنه لا يجوز، ومنهم من يقول بأنه يجوز، ولكن البخاري عقد هذه الترجمة وأورد تحتها الحديث، وهو قطعة من حديث الهجرة الطويل، الذي فيه هجرة الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وأنه أخذ معه رجلاً من بني الدِّيل، وهو حديث عائشة، قالت: "واستأجر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل هَادِيًا خِرِّيتًا، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه الغار بعد ثلاث"، يعني الاتفاق حصل بينه وبين الرسول وواعده بعد ثلاث، وهذا الحديث أورده البخاري في هذه الترجمة: « بَابٌ: إِذَا اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا لِيَعْمَلَ لَهُ بَعْدَ شَهْرٍ أَوْ سَنَةٍ جَازَ، وَهُمَا عَلَىٰ شَرْطِهِمَا الَّذِي اشْتَرَطَاهُ إِذَا جَاءَ الأَجَلُ »، فهذا العمل الذي فعله الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وصاحبه أبو بكر -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- يدل علىٰ هذه المسألة من مسائل كتاب الإجارة.

إذن كتاب البخاري هو كتاب حديث وكتاب فقه، وكتاب رواية ودراية.

وكذلك كتاب الموطأ فإنه جمع بين الفقه والحديث، وهكذا الكتب الأربعة التي هي: سنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجة، فهذه الكتب الأربعة كلها مبنية علىٰ هذا المنوال، الذي هو الترجمة لموضوع من الموضوعات ثم إيراد الأحاديث أو الحديث تحت الترجمة ليبين فيه أن هذا الموضوع دل عليه هذا الحديث.

بل إن بعضهم -مثل النسائي- أكثَر من التراجم في كتابه مع قلة الأحاديث فيه، لأن سنن النسائي هو أقل كتب السنن حديثا، ولكنه مملوء بالأبواب ومملوء بمسائل الفقه المختلفة. وأذكر مثالاً من الأمثلة التي تدل علىٰ دقة فهمه في الاستنباط، قال في أول كتاب الطهارة: « بَابُ اسْتِيَاكِ الصَّائِمِ فِي العَشِيِّ»؛ يعني أن الصائم يجوز له أن يستاك في العشي، فهذا الباب أتىٰ به في كتاب الطهارة، وأورد تحته حديث: "لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة"[1]، وأخذ من هذا الحديث أن الإستياك للصائم بعد الزوال لا بأس به، وأنه جائز، وهذا الحديث يدل عليه، وهو وجه الدلالة، قال: قوله: "لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة"، ومعلوم أن صلاة العصر في العشي، وهي داخلة ضمن الصلوات، فعلىٰ هذا يجوز للإنسان أن يستاك عند صلاة العصر، ويستاك في العشي، ولا محذور في ذلك، والجماعة الذين قالوا: إنه لا ينبغي له أن يستاك لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ: "لَخُلُوف فم الصائم أطيب[2] عند الله من ريح

---

(1) متفق عليه.

(2) ((قوله : " أطيب عند الله من ريح المسك " اختلف في كون الخُلوف أطيب عند الله من ريح المسك -مع أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزه عن استطابة الروائح، إذ ذاك من صفات الحيوان، ومع أنه يعلم الشيء علىٰ ما هو عليه- علىٰ أوجه. قال المازري: هو مجاز؛ لأنه جرت العادة بتقريب الروائح الطيبة منا، فاستعير ذلك للصوم لتقريبه من الله، فالمعنىٰ أنه أطيب عند الله من ريح المسك عندكم، أي: يقرب إليه أكثر من تقريب المسك إليكم، وإلىٰ ذلك أشار ابن عبد البر، وقيل: المراد أن ذلك في حق الملائكة ، وأنهم يستطيبون ريح الخُلوف أكثر مما يستطيبون ريح المسك، وقيل: المعنىٰ أن حكم الخُلوف والمسك عند الله علىٰ ضد ما هو عندكم، وهو قريب من الأول. وقيل: المراد أن الله تعالىٰ يجزيه في الآخرة فتكون نكهته أطيب من ريح المسك، كما يأتي المكلوم وريح جرحه تفوح مسكا. وقيل: المراد أن صاحبه ينال من الثواب ما هو أفضل من ريح المسك لا سيما بالإضافة إلىٰ الخُلوف، حكاهما عياض)) اهـ. (انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ص: 127).

قال الشيخ العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لصحيح مسلم: ((استدل البعض بأن الله يوصف بالشم، وهذا ليس بصريح ولا يجوز الجزم به لعدم الصراحة. إذ قد يكون إدراك الله لهذه الرائحة عن طريق العلم لا عن طريق الشم، ولذلك مادام أنه لم ترد هذه الصفة وهي من الصفات الخبرية الصريحة فإن الأجدر بالإنسان الإمساك)) اهـ.

المسك"[1]، ولكن قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ: "لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة" يدل علىٰ جوازه، وأنه لا مانع في ذلك.

وهذا من الدقة في الفهم والاستنباط.

إذن المحدِّثون -رحمهم الله- عندما دوَّنوا الكتب منهم من جمع بين الفقه والحديث، فكُتُبهم كتب رواية ودراية، كتب حديث وكتب فقه.

والذي كان عليه العمل في القرن الأول هو أنهم كانوا يأخذون الحديث ويعملون به، وإذا نزلت بالناس نازلة يحتاجون إلىٰ معرفة حكمها، فمن كان عنده حديث عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ذكره، ومن لم يكن عنده شيء سأل الناس حتىٰ يجد الدليل علىٰ ذلك إن وجده.

وأبو بكر الصديق -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ- لما جاءته جدة تسأله الميراث من حفيدها، قال: **"ليس لكِ في كتاب الله شيء، وما علمت لكِ في سنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، ولكن حتىٰ أسأل الناس"**[2]، فسأل، فجاءه اثنان من الصحابة وأخبراه بأن الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أعطاها السدس، فقضىٰ بالسدس.

وكان الواحد منهم عندما يُسأل عن مسألة من المسائل ولا يجد فيها حديثا، يفتي السائل ويقول: **"أقول فيها برأيي، فإن كان صوابا فمِن الله، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه"**، ثم يفتيه بما ظهر له، وإذا أفتىٰ ثم بعد ذلك تبيَّن له الحديث عن الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ترك فتواه، ورجع إلىٰ حديث رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

فكان المعوَّل عليه هو الحديث والدليل من الكتاب والسنة، وهذا هو الذي كان عليه الناس في القرن الأول؛ فمن كان عنده علم عن الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يعمل به، والذي لا يكون

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم (1904). ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام (1151).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الفرائض، باب في الجدة (2894). والترمذي في كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة (2100) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

عنده علم يسأل من عنده علم، فإذا وجده أخذ به، وإن لم يجده اجتهد وأفتىٰ، ولهذا نُقِلت عن الصحابة -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ- في مسائل الفقه المختلفة الأقوال المتعددة، فكثيرا من المسائل يُذكر فيها رأي أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ وعبد الله بن مسعود، وفلان وفلان وفلان.. وهكذا تُذكر أقوالهم وآراؤهم في المسألة، هكذا كان شأنهم.

وقد مضىٰ علىٰ ذلك القرن الأول، ثم بعد ذلك مضىٰ التابعون علىٰ هذا المنوال، حيث كان الواحد منهم يرتحل من مكان إلىٰ مكان ليُحصِّل الحديث عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ليعمل به، وكان بعضهم يسأل بعضا عما يُحصِّله من الأحاديث عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

ومن الأمثلة؛ أن بعض التابعين وهو حَصِين بن عبد الرحمن قال[1]: "كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا"، ولما قال: أنا، انقدح في ذهنه أنه قد يظن أنه رآه لأنه كان قائما يصلي، فخشي أن يُظَن أنه مشتغل بعبادةٍ وهو ليس متلبسًا بهذه العبادة، فبادر ونفىٰ عن نفسه أن يُظنَّ أنه عمل شيئا وهو لم يعمله، فهم كانوا لا يُحِبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، ولا يرىٰ ذلك الكوكب الذي انقض إلا من كان مستيقظا، وقد يكون مستيقظا من أجل الصلاة، فقال: "أَمَا إني لم أكن في صلاة ولكني لُدِغت"، يعني أن السبب الذي كنتُ مستيقظًا لأجله ورأيت الكوكب الذي انقض البارحة: أني كنت لديغا. فقال له: فماذا صنعت؟ قال: قلت: ارتقيت، يعني بحثت عن أحد لينفث عليَّ رقية، فقال: ما حملك علىٰ هذا؟ يعني ما هو الدليل؟ فأجابه بالحديث الذي بلغه في ذلك، وهو: "لا رقية إلا من عين أو حمة"[2]، فماذا قال له سعيد بن جبير؟ قال: **"قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما قد سمع"**. يعني: من انتهىٰ إلىٰ ما بلغه عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ فقد أحسن، ثم أرشده إلىٰ شيء أولىٰ وأكمل وأفضل فقال: "ولكن حدثنا ابن

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (220).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الطب عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، باب ما جاء في الرخصة في ذلك (2057).

عباس..." وذكر حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وذكر من صفاتهم: "أنهم لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون"[1].

فكان بعضهم يسأل بعضا عن العمل الذي عمل، ما الذي دفعه وحمله علىٰ أن يعمل به؟ فيبيِّن الدليل الذي بلغه عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

فسعيد بن جبير كان يرىٰ أن الأولىٰ خلاف هذا الشيء، وهو الأخذ بما هو الأكمل والأولىٰ، وهو أن يكون الإنسان علىٰ طريقة السبعين ألفا، وقال: **"قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما قد سمع"**، وهذه كلمة من أجمل الكلام وأحسنه! وهي أن الإنسان عندما يعمل بالدليل الذي بلغه عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فهو محسن، وهو مأجور، وهو علىٰ خير.

وكان في الصحابة من هو مشهور بالفقه وبالفتوىٰ، وكذلك في التابعين، فكان فيهم فقهاء المدينة السبعة المشهورين الذين كانوا في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الذي يليه، وهكذا كان بعدهم أمم كثيرة، وكلهم كان عندهم العناية بالفقه، وعندهم الجمع بين الفقه والحديث[2].

(1) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب (6541). ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (220).

(2) ومن أجود ما قيل في هذا؛ ما قاله الشيخ عبد المحسن العباد –حفظه الله– في شرحه لسنن أبي داود: ((ذكر أبو سليمان الخطابي في مقدمة كتابه معالم السنن: أن الناس انقسموا قسمين وصاروا حزبين: أهل خبر وأثر، وأهل فقه ونظر، وقال: إن كلاً منهم يكمل الآخر، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه، ثم ضرب لذلك مثلاً فقال: إن الذي يعتني بالحديث ولا يشتغل بالفقه ولا باستنباط المسائل من الحديث مقصر، ويقابله الذي يشتغل بحصر مسائل الفقه والاشتغال بكلام فقيه من الفقهاء دون أن يرجع إلىٰ كتب الحديث، ودون أن يرجع إلىٰ الأدلة، فهذا أيضا مقصر. ثم قال: إن الحديث والفقه كأساس البنيان والبنيان، فمن عمل أساسا وأحكمه وأتقنه ولم يبن عليه لم يستفد منه. قال: فهذا مثل من يعتني من الحديث بأسانيده ومتونه ولا يشتغل بفقهه وما يستنبط منه؛ لأن الناس متعبدون بالعمل بالحديث، والعمل بالحديث يأتي عن طريق الفقه والاستنباط، ولهذا قال الرسول ﷺ: "نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعىٰ من سامع، ورب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه". والمقصود من الحديث ومن السنن هو فقهها واستنباط ما فيها من أحكام حتىٰ يعمل بها، ولهذا يقول الرسول الكريم ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين". يعني: يبصره ويعرفه بأمور دينه حتىٰ يكون عارفًا بالحق عاملاً به داعيًا إليه علىٰ بصيرة وهدىٰ. فمن يقوي الأساس ثم لا يبني عليه فروعه لا تحصل ثمرته، ومن اشتغل بمسائل الفقه دون أن يرجع إلىٰ الحديث، ودون أن يبحث عن الصحيح والضعيف؛

=

علىٰ هذا انقضىٰ القرن الأول؛ وهو أنهم كانوا يعملون بما جاءهم عن رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- وُلِد سنة ثمانين من الهجرة، والإمام مالك وُلِد بعد التسعين، وتوفي الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- سنة مائة وخمسين، وتوفي الإمام مالك سنة مائة وتسعة وستين، والشافعي وُلِد في السنة التي مات فيها أبو حنيفة، وتوفي سنة مائتين وأربع، والإمام أحمد توفي سنة مائتين وواحد وأربعين، وكانوا كغيرهم من علماء السلف، فكل واحد من هؤلاء الأئمة الأربعة وغيرهم كان يحرص علىٰ حديث رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، ويبحث عن حديث رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، وكان بعضهم يتلقىٰ عن بعض؛ يعني هؤلاء الأئمة الثلاثة الذين هم: مالك والشافعي وأحمد كل متأخرٍ منهم روىٰ عن الذي قبله، وكل واحد منهم شيخٌ للذي بعده؛ فالإمام الشافعي روىٰ عن الإمام مالك، والإمام أحمد روىٰ عن الإمام الشافعي.

وكان الشافعي -رحمه الله- مع أنه شيخ الإمام أحمد يقول له: **"إذا صح عندكم الحديث يا أبا عبد الله، فأعلمونا به حتىٰ نعمل به، إذا كان صحيحا"**، وروىٰ ذلك الطبراني عن عبد الله بن الإمام أحمد عن الإمام أحمد أن الشافعي -رحمه الله- كان يقول هذا الكلام.

وذلك أنه -كما هو معلوم- ليس هناك أحد يحيط بحديث رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، لأن الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- كانوا يأتون في مناسبات مختلفة، وقد يأتي الشخص في مناسبة من المناسبات وليس عند الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أحد من الصحابة، أو يكون عنده النفر القليل من الصحابة، ثم الصحابة تفرقوا في الآفاق، وذهبوا يمينًا وشمالاً، وكلٌ كان من عنده علم من رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، فلا يستوعب كل أحد من الأمة كل ما جاء عن الرسول صَلَّىٰ اللهُ

فإنه يبني علىٰ غير أساس، فهو بنيان ضعيف معرض للانهيار؛ لأنه يستدل بحديث موضوع، فكل من الحديث والفقه لابد له من الآخر. ولكن إذا جمع بين الأمرين فقد جمع بين الحسنيين، وعمل علىٰ تحصيل الأساس وتقويته ثم بنىٰ عليه الفروع، فجمع بين الرواية والدراية، فهذا هو المطلوب)) اهـ.

عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بحيث لم يفته حديث واحد عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ-، وما ادعىٰ هذا أحد من الأئمة، ولا يجوز أن يُدَّعىٰ له.

وقد روىٰ الإمام أحمد في المسند حديثا عن الإمام الشافعي، والإمام الشافعي رواه عن الإمام مالك، وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ: "نَسَمَةُ المؤمن طائر يَعْلُق في شجر الجنة"[1]، فهذا الحديث في سنده ثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب المعروفة؛ الإمام أحمد يرويه عن الإمام الشافعي، والإمام الشافعي يرويه عن الإمام مالك، وقد أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]، روىٰ هذا الحديث وقال: هذا حديث عزيز؛ في إسناده ثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب المشهورة المتبعة.

إذن عرفنا أن القرن الأول مضىٰ علىٰ هذا المنوال؛ وهو البحث عن الدليل والعمل به، ومن لم يكن عنده علم يستفتي من عنده علم، ثم يعمل بما بلغه، وعلىٰ هذا المنوال كان التابعون وأتباعهم ومنهم الأئمة الأربعة، وغيرهم ممن قبلهم وفي زمانهم ومن هو بعدهم، فنجد في كتب الفقه وفي كتب الحديث وفي كتب التفسير النقول الكثيرة عن الفقهاء الكثيرين في مختلف القرون وفي مختلف الأعصار، في زمن الصحابة والتابعين؛ فيُذكر قول فلان وقول فلان.. وهكذا.

والأئمة الأربعة حصل لهم تلاميذ عنوا بجمع أقوالهم، ولكنهم ما قلدوهم، وما التزموا بما جاء عنهم في كل شيء؛ بل كانوا يُدوِّنون أقوالهم، ويوافقون منها علىٰ ما يرونه موافقًا للدليل، ويخالفونهم فيما يرونه علىٰ خلاف الحديث الذي ورد عن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

---

(1) أخرجه البيهقي في البعث والنشور، باب ما يستدل به علىٰ أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ رأىٰ الجنة والنار ورأىٰ في كل واحدة منهما بعض أهلها، وما أعد لبعض أهلها، والمعدوم لا يرىٰ وأخبر عن مصير أرواح أهلها إليها قبل القيامة، وغير ذلك مما يستدل به علىٰ خلقهما. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13)﴾ يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (15)﴾ المأوىٰ اسم لجنس الجنان، وسميت مأوىٰ لأنها مأوىٰ أهل الجنة ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (17) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (18)﴾ [النجم].

ومعلوم أن أبا يوسف ومحمدا خالفا أبا حنيفة في كثير من المسائل، ومعلوم أن كثيرا من أصحاب الشافعي هم علىٰ خلاف قوله، وكذلك الإمام مالك كثير منهم كان علىٰ خلاف قوله، وكذلك الإمام أحمد كثير منهم كان علىٰ خلاف قوله، لأن المعوَّل عليه إنما هو الدليل، ولكن دوَّنوا هذا التدليل لمسائل الفقه، ليُعرَف ما عندهم من الفقه، ويُرجَع إليه، وليُستفاد منه فيما إذا كان ليس هناك دليل علىٰ خلافه، أما إذا كان الدليل موجودا علىٰ خلاف قول الإمام، فإنهم يعملون بما جاء به الدليل، لأن هذا هو الواجب؛ لأن الواجب علىٰ الأمة هو اتباع الدليل من الكتاب والسنة.

إذن الأئمة الأربعة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- أتباعهم دوَّنوا فقههم، ولكن تلاميذهم ومن كان في عصرهم ومن بعد عصرهم بقليل ما كانوا يقلدونهم، والتقليد إنما جاء بعدهم، وأعني أن التقليد الأعمىٰ الذي هو التزام المذهب بحيث لا يخرج عنه ولو وُجد الدليل علىٰ خلافه، هذا ما وُجِد إلا في القرن الرابع، كما قال ذلك العلماء، ومنهم ابن عبد البر -رحمه الله-.

فإذن الأئمة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- هم كغيرهم من أئمة المسلمين؛ بذلوا جهدهم في تحصيل الحق والهدىٰ، واجتهدوا. وكل واحد من المجتهدين -الأئمة الأربعة وغيرهم- ليس معصومًا من الخطأ، وليس هناك أحد معصوم بعد رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فالمعصوم هو رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، وأما من بعده من الصحابة ومن بعدهم فلا عصمة لأحد بعد رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

فكانوا يبحثون عن الدليل لأن فيه العصمة، وكانوا إذا قالوا بالرأي ووُجِد الدليل علىٰ خلافه تركوا الرأي وذهبوا إلىٰ الدليل، لأن هذا هو مقتضىٰ التكليف، وهذا مقتضىٰ التشريع، لأن الله تعالىٰ أرسل رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ليُتَّبع، ولِيُسار علىٰ نهجه، وجاء هذا في آيات كثيرة:

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

ويقول سُبْحَانَهْ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۝٣٦﴾ [الأحزاب]، فلا خيار مع حكم الله ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

ويقول سُبْحَانَهْ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۝٥٩﴾ [النساء].

ويقول سُبْحَانَهْ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۝١٠﴾ [الشورىٰ].

ويقول سُبْحَانَهْ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور]. يقول الإمام أحمد: **"أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيهلك"**[1] لأن قول الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لا يُرد؛ بل يجب أن يُتَّبع، وهذا هو مقتضىٰ شهادة أن محمدا رسول الله، لأن شهادة أن محمدا رسول الله ليست كلاما يقال علىٰ الألسنة فقط؛ بل لها مدلول لابد من وجوده لتحقيق هذه الشهادة، وقد لخص هذا المدلول أحد علماء المسلمين فقال: « طَاعَتُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ الله إِلَّا بِمَا شَرَعَ »[2]؛ فيُصدِّق العبد بكل خبر يخبر به -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ-، سواء كان ماضيا أو مستقبلاً أو موجودا لا نشاهده ولا نعاينه، فكل ما ثبت عن رسوله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ- من خبر فالواجب علينا التصديق، وهذا معنىٰ شهادتنا بأن محمدا رسول الله، وإذا أمر فيجب السمع والطاعة، وإذا نهىٰ فيجب السمع والطاعة، ولا يجوز لنا أن نتعبد الله بعبادات محدثة لم يشرعها رسول الله، « طَاعَتُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ » هذا هو معنىٰ أشهد أن محمدا رسول الله.

والإنسان في قبره لا يُسأل إلا عن ربه وعن رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ ومتابعته.

(1) أخرجه ابن بطه في الإبانة الكبرىٰ 1\260.

(2) رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها (الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة): للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ.

فإذن طاعة الله وطاعة الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لازمة ومتعيِّنة، ولا خيار فيها، والواجب إنما هو الاستسلام والانقياد، وهذا هو معنىٰ كون الإنسان مسلما؛ لأن المسلم هو المستسلم، المنقاد لله، طبقا لما جاء عن رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ.

إذن عرفنا أن الحق إنما هو العمل بما كان عليه القرن الأول، فالذي كان عليه القرن الأول هو الذي كان عليه الناس في القرن الثاني، وهو الذي كان عليه الناس في القرن الثالث، وهو الذي يجب أن يكون عليه الناس إلىٰ يوم الدين، لأن القرن الأول هو خير القرون، لأن طريقهم في العمل وطريقهم في التلقي هو البحث عن الدليل.

إذن؛ هذا الذي كان في القرن الأول هو الواجب أن يكون في كل زمان ومكان.

وبعد هذا يقال: ما هو الموقف من المذاهب الأربعة وغير الأربعة من الأشياء التي دوِّنت، كفقه عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وفقه أبي بكر الصديق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وفقه عثمان، وفقه علي، وغيرها من الأشياء التي دُوِّنت وجُمِعت من الكتب، وكذلك فقه إبراهيم النخعي[1]، وفقه سعيد بن المسيب[2]، وفقه سعيد بن جبير[3]، وفقه فلان وفلان، ما هو الواجب تجاههم؟

الذي علينا بالنسبة للأئمة الأربعة وبالنسبة لغير الأئمة الأربعة أننا نُجلُّهم ونحترمهم ونقدِّرهم، ونعرف أنهم من خيار علماء المسلمين، وأن كل واحد منهم اجتهد وبذل وسعه في البحث عن الحق، وأن كل واحد منهم لا يعدم أجرا أو أجرين؛ فإن وُفِّق للصواب فهو صاحب

---

(1) الإمام، الحافظ، فقيه العراق، أبو عمران، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن سعد بن مالك بن [النخع] النخعي، اليماني ثم الكوفي، أحد الأعلام، وهو ابن مليكة أخت الأسود بن يزيد. (انظر: سير أعلام النبلاء، الطبقة الثانية).

(2) ابن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة، الإمام العَلَم، أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه. وُلِدَ لسنتين مضتا من خلافة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقيل: لأربع مضين منها بالمدينة. رأىٰ عمر، وسمع عثمان وعليا وزيد بن ثابت وأبا موسىٰ وسعدا وعائشة وأبا هريرة وابن عباس ومحمد بن مسلمة وأم سلمة، وخلقا سواهم. وقيل: إنه سمع من عمر . (انظر: تراجم الأعلام).

(3) سعيد بن جبير ابن هشام، الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الأسدي الوالبي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام. (انظر: تراجم الأعلام).

أجرين: أجرٌ لاجتهاده وأجرٌ لإصابته، وإن لم يُوَفق للصواب في مسألة معينة فإنه مأجور علىٰ اجتهاده، وخطؤه مغفور، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ في الحديث الصحيح: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد"[1].

إذن الأئمة الأربعة هم كغيرهم من الأئمة، فهم أئمة مجتهدون بذلوا وسعهم في الأخذ بالدليل والعناية بالدليل، وأن كل واحد منهم لا يعدم أجرا أو أجرين، وهذا هو الذي يجب اعتقاده في حق أئمة المسلمين، ولا يجوز لا الغلو ولا الجفاء؛ فالحق وسط بين الإفراط والتفريط، ولا يجوز لأحد أن يقول: أنا ألتزم مذهب هذا الإمام، وأتابعه في كل مسألة من المسائل، ولا أخرج عنه سواءً كان هناك دليل عن الرسول أو ليس هناك دليل، وألتزم بهذا المذهب وأتقيد به لأنني ليس عندي القدرة علىٰ معرفة الحق، فأنا أتعبد الله وفقا لمذهب معين، هذا غلو، وهذا يخالف ما جاء عن الله وعن رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامْ، ويخالف ما جاء عن الأئمة أنفسهم .. [2]

(1) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (7352). ومسلم في كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (1716).

(2) هنا انتهت المادة الصوتية.